

أهل الذمة ودورهم في تقلد الوظائف الإدارية في مصر خلال العصر الفاطمي  
(358-447هـ/969-1055م)

د.منى حسن حدود

كلية الآداب الزاوية - جامعة الزاوية

المقدمة:

ضمت الدولة الفاطمية أعدادا من غير المسلمين عرفوا عبر كتب الفقه الإسلامي بأهل الذمة، كما جاء في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾<sup>(1)</sup>.

فأهل الذمة هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين أطلق عليهم أهل الذمة بعد الفتح الإسلامي لمصر، فكان لزاما عليهم دفع الجزية والخراج لعدم اعتناقهم الإسلام. ويتمحور هذا البحث حول نقطتين أساسيتين هما: أهل الذمة دورهم في تقلد الوظائف الإدارية واستغلالهم لمناصبهم فيها، وموقف الخلفاء الفاطميين من استغلال هؤلاء لمناصبهم وانعكاس ذلك سلباً على عامة الشعب.

وكان اختيارنا لفكرة هذا البحث للإشارة للدور المهم الذي لعبه أهل الذمة في الوظائف الإدارية كافة، حيث اعتلوا وظائف مهمة، وقد نالوا قدراً كبيراً من التسامح الديني في ظل العصر الفاطمي وكان النصارى يشكلون نسبة كبيرة، أما اليهود فنسبة ضئيلة<sup>(2)</sup> هذا واستعان الفاطميون بأهل الذمة واعتلى هؤلاء مناصب كبرى في الدولة، فكان منهم الوزراء والكتاب ورؤساء الدواوين، فعاشوا كطبقة مهمة كان لها مكانة اجتماعية وأصبحوا أصحاب ثروة وعز، كما كان معظم أطباء القصر من أهل الذمة وذلك لبراعتهم في علوم الطب.

فأصبح الاعتماد الكبير على أهل الذمة ليستفيدوا من خبراتهم ومهاراتهم في الوظائف الإدارية، كما أن القائد جوهر الصقلي لم يجد مناصاً من الاعتماد عليهم حتى لا يهتز النظام الإداري في الدولة وترتبك شؤونها؛ كما أن الخلفاء الفاطميين لا يمكنهم الاعتماد على السنة، الذين كانوا دائماً على عدااء معهم، ومع الوقت سيطر أهل الذمة على مفاصل الدولة ومالوا إلى أبناء جلدتهم، في حين استبعد المسلمون فأدى ذلك إلى غضبهم وحينها تدخل الخلفاء لصالح المسلمين.

شهد العصر الفاطمي اعتناق كثير من أهل الذمة للدين الإسلامي وذلك طمعاً في تولي الوظائف الكبرى في الدولة وخاصة الوزارة، ونتيجة لما تعرضوا له من مضايقات في عهد الخليفة الحاكم (386-411هـ)، أو الحصول على الهيئات والعطايا، إلا أن أهل الذمة نالوا نصيباً كبيراً من التسامح الديني في ظل خلفاء العصر الفاطمي باستثناء الحاكم الذي خيرهم بين الإسلام أو الهجرة، ثم خفف من حدة سياسته وعاد وتسامح معهم، حيث عمرت الكنائس والأديرة، وقد أتقن أهل الذمة اللغة العربية، حيث انتشرت بينهم وتمتعوا بمكانة كبيرة لدى الخلفاء، حيث نالهم نصيب وافر من الأموال والثروات.

إن أهل الذمة نعموا بجميع الحريات والحقوق في ظل الدولة الفاطمية، مما أتاح لهم الكثير من الامتيازات التي سمحت لهم بالقيام بنشاط كبير على كافة الأصعدة، مما ترتب عليه تمتعهم بوضعية اجتماعية مميزة عاشت في كنف المسلمين حياة سهلة، إذ كانوا قد تعرضوا لبعض الأوامر، فهذا يرجع إلى تسلطهم على المسلمين واستعبادهم لهم وتقربهم لأبناء جلدتهم والعطف عليهم.

تحدث البحث عن وظائف غير المسلمين في الدولة ولاسيما في الجهاز الإداري، حيث تناول استخدام الخلفاء لأهل الذمة في الوظائف الكبرى للدولة في الوزارة والدواوين، وتضمن موقف الخلفاء الفاطميين وعامة الشعب المصري من أهل الذمة ووضح كيف أن سياسة

التسامح الديني ساهمت في تمتع هؤلاء بحرياتهم، بل وتمادوا في ذلك، حيث استتبعوا المسلمين من وظائفهم ومالو إلى أبناء جلدتهم، عندها تدخل الخلفاء لصالح عامة الشعب. ومن الكتب ذات الأهمية بالنسبة إلى موضوع البحث كتب المقرئى الخطط المقرئىة - اتعاض الحنفاء، حيث يحفل كل منهما بكثير من الحوادث ذات الأهمية في استجلاء حقائق الأمور، كما أفاد البحث من كتاب ابن تغري لبردي النجوم الزاهرة في محاسن مصر والقاهرة، حيث يذكر معلومات مهمة وخاصة في الأجزاء الأخيرة منه. وكما يحاول البحث إلقاء الضوء على ما أناطته الدولة الفاطمية من رعاية كبيرة وحرية تامة لأهل الذمة في دولة الإسلام.

### أهل الذمة:

### استخدام أهل الذمة في الدواوين والوزارة:

كان الخليفة الفاطمي المعز لدين الله الفاطمي(341-365هـ - 952هـ / 975م) بحاجة إلى موظفين يعتمد عليهم في إدارة أمور البلاد لأنه لا يستطيع بالمقابل الاعتماد على أهل السنة الموالين للخلافة العباسية في هذا الشأن، حيث تسامح مع أهل الذمة واعتمد عليهم في وظائف الدولة<sup>(3)</sup>، بل إن المعز في لحظة وصوله إلى القاهرة في رمضان 362هـ / 973م شهر يونيو عفا عن الذين اعتقلهم القائد جوهر الصقلي وأطلق سراحهم<sup>(4)</sup>. ومن أبرز الموظفين الوزير يعقوب بن كلس\*، حيث ولاه المعز أمر الخراج، ونال نصيباً من ثقة ومحبة الخليفة، وأناط به مهمة الحسبة والأعشار والجوالي\* والأحباس\*، بل اختصه المعز بديوان الخليفة وكان من المقربين إليه<sup>(5)</sup>. وقام بدور مهم كوزير للدولة<sup>(6)</sup>.

فلما كان ابن كلس يدير الدواوين والخراج هو وعسلوج كان من أسباب اعتقاد المؤرخين أنه عين وزيراً<sup>(7)</sup>، فابن كلس تولى الوزارة في عهد العزيز ولم يتولاها في عهد المعز، ففي سنة 368هـ لقبه العزيز بالوزير الآجل<sup>(8)</sup>، واختلف المؤرخون في تاريخ تولى ابن كلس الوزارة، حيث ذكر ابن خلدون والقلقشندي أن ابن كلس تولى الوزارة في عهد المعز لدين الله<sup>(9)</sup> في

حين يذكر كل من ابن تغري بردي وابن العماد والمقريزي بأنه قد تولاهما (أي الوزارة) في عهد العزيز<sup>(10)</sup> (365-386هـ/975-976م) واختلف المؤرخون في تاريخ توليه الوزارة، فمنهم من ذكر أنه تولاهما في عهد العزيز سنة 365هـ/975م<sup>(11)</sup>. ومنهم من ذكر يوم 18 رمضان سنة 368هـ<sup>(12)</sup>.

في سنة 363هـ عين المعز كلاً من ابن كلس وعسلوج بن الحسن وكتب لهما سجلاً قرئ يوم الجمعة على منبر جامع أحمد بن طولون<sup>(13)</sup>. وكانا يعملان بجدية صارمة في عملهما، حيث أنهما في نظام الالتزام أو القبالة كانا في جباية الضرائب يتشددان في حمل المتقبلين على أداء ما عليهم من البواقي<sup>(14)</sup>.

كان ابن كلس يدير الدواوين والخراج هو وعسلوج مكان ذلك من أسباب اعتقاد المؤرخين أنه عين وزيراً<sup>(15)</sup>. فابن كلس تولى الوزارة في عهد العزيز ولم يتولاها في عهد المعز، ففي سنة 368هـ لقبه العزيز بالوزير الآجل<sup>(16)</sup>.

ويعقوب هو من دعا بل وشجع المعز للسيطرة على مصر، حيث أطلعه على أسرار مصر وسهل له فتحها<sup>(17)</sup>، وتؤكد ذلك استناداً على ما ذكره ابن تغري بردي أنه كان من أكبر أسباب حركة المعز وإرسال القائد جوهر إلى الديار المصرية<sup>(18)</sup> بل ويذكر أنه بفضل خبرة ومعاونة القائد جوهر والوزير ابن كلس جعلوا معاً للدولة الفاطمية قواعد ثابتة استمرت قرنين من الزمن<sup>(19)</sup>، ولابن كلس الفضل في وضع قواعد الدولة ونظمها<sup>(20)</sup>.

إن اعتماد الفاطميين على أهل الذمة في الوظائف المهمة في الدولة يعود إلى الاستفادة من خبرتهم ومهاراتهم في الأمور المالية<sup>(21)</sup>، فكان هؤلاء أكثر دراية بأمور الخراج والجزية والضرائب، فضلاً عن خبرتهم في إدارة الدواوين<sup>(22)</sup> كدواوين الخراج والإنشاء والمكاتبات وخاصة في بداية قيام الدولة، حيث لم يكن للفاطميين معرفة وخبرة على ضبط الأمور المالية والإدارية التي تحتاج إلى مهارة وكفاية<sup>(23)</sup>.

إلا أن عبد المنعم سلطان يرى أنه من الضروري الاعتماد على أهل الذمة لأن اشراك هؤلاء لابد منه حتى لا يهتز النظام الإداري وترتبك شؤون الدولة (24).

استمر الاعتماد على أهل الذمة في عهد الخليفة عبدالعزيز (365هـ-386هـ/ 975م-996م)، حيث استمر ابن كلس في توليه للمناصب العليا في الدولة فكان أول وزرائها، فقد عمل ابن كلس في عهد المعز ثم تولى الوزارة في عهد العزيز، وقد ساهم ابن كلس مساهمة كبيرة في إجراء إصلاحات مالية وإدارية، بل عمل على ازدهار العلم في الدولة (25). وقد لقبه وكما ذكرنا بالوزير الاجل، فكانت له مكانة عظيمة حتى أن اسمه كتب على الطرز وفي الكتب، فأسهب الشعراء في مدحه (26)، يذكر المقرئ أن دواوين الدولة الفاطمية كانت بدار الإمارة ولما تولى ابن كلس الوزارة نقلها إلى داره، ولما توفي نقلها العزيز إلى القصر، ثم نقلت إلى دار الملك، ثم رجعت إلى القصر حتى زوال الدولة الفاطمية قبل ذلك ولقب أيضاً بالشافى (27).

كما برز في عهد العزيز منشأ إبراهيم بن القزاز اليهودي بالشام والكاتب عيسى بن نسطورس النصراني (28)، ويذكر أن الخليفة كان يخاطب عيسى "بسيدنا الأجل" (29) وهو أول من تولى منصب الوساطة سنة 384هـ/994م (30) لأهل الذمة وخاصة النصارى لأن زوجة العزيز نصرانية وهي أخت بطرياركي الإسكندرية وأورشليم الملكانيين (31).

كانت أكثر الوظائف من نصيب أهل الذمة، فهذا ما شجعهم على استغلال مناصبهم للتحكم في المسلمين والإساءة إليهم، حتى أن أحد الشعراء طلب من أهل مصر اعتناق اليهودية حتى ينالوا المكانة وتنفذ مطالبهم، فأثار كل هذا حقد المسلمين عليهم (32).

هذا وأن حصول أهل الذمة على المناصب الكبرى في الدولة يرجع إلى سياسة التسامح الديني التي مارسها الخلفاء معهم، وإلى أن زوجة العزيز نصرانية، فضلاً عن خبرة أهل الذمة ودرايتهم في الأمور المالية، ذلك أن الفاطميين مدركون تماماً لأنهم غير محبوبين في أوساط

أهل السنة، بل هم في عداً مستمر معهم، فلم يكن هناك مناصب من الاعتماد على أهل الذمة<sup>(33)</sup>.

فالخليفة العزيز أكثر من استخدام أهل الذمة، فقد عين أخوي زوجته في مناصب كنسية، فأخوها اريستيس عين بطيركا على بيت المقدس، وأخيها ارسانيوس بطيركا على القاهرة ومصر فظلم هؤلاء طائفة الأرثوذكس لأنهما كانا من طائفة الملكانية<sup>(34)</sup>.

واختلفت سياسة الخليفة الفاطمي الحاكم (386-411هـ/996-1020م) تجاه أهل الذمة عن سياسة من سبقه، حيث تشدد في معاملته لهم وذلك بإقصائهم تدريجياً وذلك لأنه لا يستطيع الاستغناء عنهم نهائياً لخبرتهم ومهارتهم في الأمور المالية.

وكان عيسى بن نسطورس موظفاً في ديوان الحاكم الخاص وقد رشحه برجوان الخادموست الملك أخت الحاكم، إلا أن ابن نسطورس لم يحترم مهنته، حيث فرض مكوس جديدة ظالمة على غير العادة فأدى ذلك إلى مقتله<sup>(35)</sup>.

كما أن نسطورس قد مال إلى النصارى وأبعد الموظفين المسلمين<sup>(36)</sup>، ويذكر أنه قبل مقتل ابن نسطورس ذهب الكتاميون إلى القصر وطالبوا الحاكم بعزل ابن نسطورس وأن ينصب أبا محمد الحسن بن عمار\*، وهددوا الخليفة (أي الكتاميين)، بشق عصا الطاعة وقتل الخليفة، فما كان منه إلا أن لبي طلبهم فعين ابن عمار ولقب بأمين الدولة، وقد مال ابن عمار إلى الكتاميين<sup>(37)</sup>، وكان برجوان ينافسه في الأمر بمساندة وتأييد من الأتراك، فهرب ابن عمار إلى الصحراء وأصبح برجوان بدله، ومع ذلك عين الحاكم ابن نسطورس في ديوانه الخاص وذلك بتأييد من ست الملك وبرجوان، وبعد عدة أشهر قتل ابن نسطورس فكان عبث الأخير بأموال البلاد فرصة لابن عمار للتخلص منه<sup>(38)</sup>.

وكان للرأي العام والكتاميين خاصة تأثير قوي على الحاكم ضد النصارى، حيث يذكر أن الحاكم نصّب أبا العلاء فهد بن إبراهيم النصراني<sup>(39)</sup> ومنحه ثقته، ونصبه على سائر الكتاب

إلا أنه قتله لأنه يميل إلى أبناء جلدته من النصارى، وذلك لأنه منحهم مناصب كبرى، وكان فهد النصراني قد أخذ أموالاً وإقطاعات من الدولة فقام الحاكم بعزله ثم قتله سنة 393هـ<sup>(40)</sup>. وبرز في عهد الحاكم منصور بن عبدون حيث تميز بالقدرة الإدارية والمالية، ولمع نجمه في دواوين الحكومة، وأصبح مقرباً من قصر الخلافة ومنحه بعد فترة من عمله لقب الكافي<sup>(41)</sup>، وأنشأ ابن عبدون أثناء تولية الوزارة ديوان سماه ديوان المفرد تودع فيه الأموال المصادرة من كبار رجال الدولة المشهورين بالفساد<sup>(42)</sup>.

تخلص الخليفة الحاكم من منصور بن عبدون لأنه مال هو أيضاً للنصارى، حيث كان ابن عبدون يتولى ديوان الشام فطلب منه الخليفة حساب ما كان يقوم به الموظفون من أعمال، ثم قام بمصادرة أموال بعضهم وسجنهم، واستطاع ابن عبدون إقناع الخليفة بإطلاق سراح الموظفين النصارى، إلا أنه في سنة 403هـ/1012 عادت الأمور إلى ما كانت عليه من فوضى مالية من قبل الموظفين النصارى، فذهب هؤلاء إلى الخليفة يطلبون السماح والعفو، ثم رد عليهم رسول الخليفة رداً رجح الأمان إلى نفوسهم، كما قتل الحاكم أخا فهد وهو أبي غالب -صاحب ديوان النفقات- وذلك لأخطائه وسوء تصرفه، ثم قام الحاكم بإعطاء الحماية لأبناء فهد ولم يأخذ قصورهم وأموالهم<sup>(43)</sup>.

إن سياسة الحاكم تجاه أهل الذمة القاسية كان بسبب تمادي هؤلاء وسيطرتهم على الوظائف الكبرى في الدولة، فتحصلوا على أموال طائلة وأرزاق كثيرة، وعاشوا عيشة رغد ورفاهية على عكس المسلمين<sup>(44)</sup>.

فمعظم الموظفين المشتغلين في مسح أراضي الخراج وتجميع الضرائب من النصارى<sup>(45)</sup>.

ونتيجة للمعاملة السيئة هذه عمد أهل الذمة إلى سياسة الفوضى والتخريب، حيث أنه حينما يحل الظلام يقومون بإشعال النيران في الأسواق المملوكة للمسلمين، عندئذ اتخذ الحاكم إجراءات عدة بأن طلب من التجار المسلمين وضع القناديل على أسواقهم وأزيار

معبئة بالماء ولكن تمادى أهل الذمة في أفعالهم جعل الخليفة يتخذ قراراً بمنع التنقل بعد صلاة العشاء، فتم إغلاق الأسواق بعد صلاة المغرب<sup>(46)</sup>.

إلا أن الحاكم وعلى الرغم من التصرفات العدائية من قبل أهل الذمة لم يستطيع الاستغناء عنهم نهائياً في الدواوين، حيث أمر بإجراء إحصاء لجميع الكتاب المسلمين الذين ليست لديهم وظيفة؛ ليعرضهم عن النصارى، إلا أنه لم يتمكن من إنهاء خدمة هؤلاء لأنه بحاجة إليهم<sup>(47)</sup>؛ ولأن النصارى يشكلون ثلث سكان مصر، ولأن أغلبهم كان على معرفة تامة بأمور الإدارة<sup>(48)</sup>. ويذكر أن الحاكم عزل صالح بن علي وهو مسلم، وعين ابن عبدون النصراني ولقبه بالكافي، فوقع وكتب عن الحاكم بعض القرارات، ومنها أمر بتهديم كنيسة القيامة وعلى الرغم من أن الكتامين دائماً ما يطالبون بإبعاد اليهود عن مناصب الدولة، فقد حدث اشتباك بين اليهود والكتامين بعد تشييع جنازة أحد علماء اليهود فتم حبس اليهود، فتجمع بعض منهم عند قصر الخليفة طالبين العفو فتمت براءتهم وأطلق سراحهم فظنوا مسيرة شكر إلى بلاط الخليفة، ثم صلوا صلاة شكر في معبدهم<sup>(49)</sup>.

وعين الحاكم في منصب الوساطة بعد مقتل فهد النصراني أبا الخير زرعة بن عيسى بن نسطورس<sup>(50)</sup>، واستطاع هذا بفضل حين إدارته أن يتحصل على ثقة الخليفة، وكانت علاقته قوية بأفراد الجيش وكبار رجال الدولة<sup>(51)</sup>، فكان من القلائل الذين نجوا من عقاب الحاكم، حيث يذكر المقرئ أن الحاكم بأمر الله تأسف لوفاته من غير قتل، وقال "ما أسفت على شيء قط أسفي على خلاص ابن نسطورس من سيفي، وكنت أود ان أضرب عنقه لأنه أفسد دولتي وخانني وناق علي<sup>(52)</sup>".

كما عين استوزر منصور بن سهلان تم إسحاق بن إبراهيم النصراني<sup>(53)</sup>، وعين صاعد بن عيسى بن نسطورس في الوزارة، حيث أسندت إليه الوساطة ولقب بالأمر الظهير<sup>(54)</sup>، وبعد وفاة أبو يعقوب بن نسطاس النصراني عين الخليفة الحاكم صقر



اليهودي<sup>(55)</sup>، وقد أعطاه الحاكم داراً بأثاثها، كما تحصل على مبلغ قيمته في ساعة واحدة عشرة آلاف دينار<sup>(56)</sup>.

وعين أبو منصور بن سورين النصراني في ديوان الانشاء<sup>(57)</sup>، وكانت النتيجة المباشرة لتولي أهل الذمة منصب الوزارة والوساطة أن امتلئت الدواوين الحكومية بالكتاب وصغار الموظفين الذميين، فيذكر الأنطاكي "كان سائر كُتَّابه وأصحاب خدمته وأطباء مملكته نصارى إلا نفر يسير من الكتاب<sup>(58)</sup>، فهذا يدل على أن غالبية رجاله دواوينه وموظفيه من أهل الذمة.

نفهم من ذلك أن الخليفة الحاكم عامل أهل الذمة معاملة حسنة، وتشدد على من خالف أوامره، فقد ذكر الأنطاكي "وأظهر من العدل ما لم يسمع بمثله، ولعمري إن أهل مملكته لم يزلوا في أيامه آمنين على أموالهم غير مطمئنين على نفوسهم، ولم تمتد يده قط إلى أخذ مال أحد، بل كان له "جود عظيم وعطايا جزيلة، وصلات واسعة، ولقد قتل من رؤساء دولته وأهل مملكته ممن لهم الأموال العظيمة ما لا يقع عليها إحصاء لكثرتهم، فلم يتعرض لأخذ مال أحد منهم لنفسه"<sup>(59)</sup>.

كانت علاقة الخليفة الفاطمي الظاهر 411هـ / 1020م بأهل الذمة جيدة، حيث أصدر مرسوماً امتدح فيه أهل الذمة، وأعرب عن رضاه وثقته في أعمالهم الوظيفية وطلب منهم تكثيف جهودهم لمساعدة وخدمة الناس، كما أصلح الخليفة الجهاز الإداري من كل الفاسدين، وكان وزيره علي بن أحمد متسامحاً مع النصارى<sup>(60)</sup>، ومن الشخصيات التي برزت في عصره الأخوان اليهوديان أبو سعد إبراهيم وأبو نصر هارون من أبناء سعد التستري، حيث كان أبو سعد يبيع للخليفة ما يحتاج إليه من الأمتعة.

اشتغل أبو نصر هارون في الصيرفة<sup>(61)</sup>، وكان من جملة ما باع أبو سعد للخليفة جارية سوداء، فأخذها الظاهر فولدت له ابنه المستنصر<sup>(62)</sup>.

ويذكر أنه لما مات الوزير صفى الدين الجرجرائي حكمت أم المستنصر الدولة، واستوزرت أبا سعد التستري<sup>(63)</sup>، وأصبح متولي الديوان وكان الوزير في عهد المستنصر (437- 487 هـ / 1035-1094م) أبو منصور صدقة الفلاحى، وقد أسلم وهو في الأصل يهودى فلم يعد له كلمة مع أبى سعد سوى الاسم وبعض التنفيذ، وقام الأخير بالتقرب إلى المغاربة وأنقص من أرزاق الأتراك، وتقرب الفلاحى من الأتراك على الرغم من أنه يهودى، وقام بتحريضهم ضد أبى سعد فقتلوه، ولما أراد الخليفة أن يعرف قاتليه أبهم عليه الأمر؛ لأن كل طوائف العسكر اعترفوا بقتله ولم يرق الأمر لأمر المستنصر، فحرضت الخليفة على الوزير الفلاحى فقام بقتله<sup>(64)</sup>.

هذا وأن إسلام أبى منصور وغيره من القبط كان رغبة منهم في الاستمرار في مناصبهم وإرضاء لشعور المسلمين الذين كثيرا ما يستنكرون تسلط أهل الذمة على شؤون الحكم<sup>(65)</sup>.

كما أن أبا سعد التستري كان يميل إلى أبناء جلدته من اليهود ويمنحهم الوظائف الكبرى في الدولة، فكان مكروهاً من المسلمين<sup>(66)</sup>، وكما تولى أبو علي الحسن بن ابى سعد إبراهيم التستري الوزارة وكانت مدة وزارته قصيرة جدا، حيث لم تتعد عشرة أيام، ويذكر أن هذا الوزير بالغ في إيذاء المسلمين حيث عين أبو نصر التستري رئيساً لديوان الخليفة، وابنه على الدواوين ولما ازداد الوضع سوءا استدعى المستنصر بدر الأرميني حيث قلده الوزارة وقرب إليه أبناء جلدته من النصارى وأسند إليهم وظائف عدة فنصب حنا ليعيد بناء أسوار القاهرة وأشرف على بناء أبواب القاهرة مثل باب الفتوح والنصر وزويلة<sup>(67)</sup>.

ومن موظفي الدواوين أيضا أبو المليح زكريا بن مينا المعروف "بماتى"، ووظيفته مستوفي الدواوين<sup>(68)</sup>.

ومن موظفي المستنصر أبو سعد بن الموصلايا وهو كاتب الإنشاء وأبو نصر هبة الله<sup>(69)</sup> والكاتب أبو شاعر الاسكندراني وأبو المكارم محبوب بن أبي الفرج<sup>(70)</sup>. وأبوسعده

منصور بن زنبور، حيث تولى الوزارة أياماً قليلة، وعندما طالبه الجند برواتبهم وعدهم، ثم ما لبث أن هرب وذلك لعجزه عن تدبير الأموال للجند. يذكر المقرئى أنه في عهد المستنصر كثر صرف الوزراء والقضاء وذلك بسبب كثرة مخالطة الرعية للخليفة بحيث يصل إليه في كل يوم ثمانمائة رفة فيها الشكايات، فاختلطت عليه الأمور<sup>(71)</sup>، وضعف عمل الوزراء لقصر مدة كل منهم مع كثرة النفقات والاستخفاف بالأمر .

إن العصر الفاطمي الأول يعتبر العصر الذهبي لأهل الذمة حيث أن اندمجوا اندماجاً حقيقياً في الحياة السياسية العامة للدولة في مصر وهذا التسامح لم يتمتع به حتى المسلمين من أهل السنة<sup>(72)</sup> فالتسامح الديني هو الذي هيا لأهل الذمة فرصة الحصول على وظائف مهمة في الدولة وخاصة الدواوين<sup>(73)</sup>، إلا في عهد الحاكم الذي خرج عن القاعدة والدليل ارتفاعهم أعلى المناصب، بل تقلدوا منصب الوزارة ونالوا حظاً من التسامح الديني<sup>(74)</sup>.

إلا أن أيمن السيد يذكر ما يخالف ذلك، حيث يمدحون الحاكم ويصفونه بالمسيح الذي يحمي أهل الذمة من التهم الموجهة إليهم. وأن ثورة أهل الذمة من اليهود والنصارى ضد الحكم الفاطمي وليست ضد أهواء الخليفة الشخصية<sup>(75)</sup>.

### الخلفاء الفاطميين وموقفهم من أهل الذمة:

عامل الخليفة المعز أهل الذمة معاملة حسنة، حيث تسامح معهم ونال هؤلاء وظائف كبرى في الدولة<sup>(76)</sup>، فكان منهم الوزراء ورؤساء الدواوين والكتاب.

وكانت علاقة الوزير يعقوب بن كلس بالخليفة العزيز علاقة قوية فيذكر أن الشاعر الحسن بن بشر الدمشقي هجا ابن كلس فأخذ الأخير يكيد له عند الخليفة العزيز حتى أمر بقتله<sup>(77)</sup>. فهذا الشاعر هجا حتى رجال القصر والأئمة فلم يقتصر هجاؤه على أهل الذمة<sup>(78)</sup>، كما يذكر أن ابن كلس أخبر الخليفة العزيز أن العتقى صنف كتاباً عن بني أمية وبني العباس، وذكر شيئاً من محاسنهم وجميل أفعالهم فوبخه الخليفة وألزمه داره حتى مات<sup>(79)</sup>. كما أن الخليفة العزيز استشار ابن كلس في توجيه حملة بقيادة جوهر الصقلي

لمواجهة منصور أفكين التركي في بلاد الشام، فأشار عليه ابن كلس بالموافقة، فكان الأخير يريد إبعاد جوهر الصقلي عن مصر حتى لا ينافسها في مكانته عند الخليفة العزيز<sup>(80)</sup>.

إلا أن العلاقات قد تسوء بين الخليفة ووزيره، فقد عزل الخليفة ابن كلس عن إدارة الدواوين ثم أرجعه بعد شهر قائلًا له: عزلت بالإغراء ورددت بصميم الآراء<sup>(81)</sup>.

كما يذكر الأنطاكي أن الخليفة لما قبض على الوزير صادر جميع ما يملكه، ثم رد إليه ما أخذه<sup>(82)</sup> إلا أن العلاقات ظلت قوية حتى في الظروف الصعبة، فحينما مرض ابن كلس مرضاً شديداً قال له الخليفة: يا يعقوب وددت لو تباع فأبتاعك بملكي وأتفتدي فأفتديك فهل من حاجة توصي بها؟ فبكى الوزير وقبل يد الخليفة ووضعها بين عينيه وقال له " أما فيما يخصني فلا فإنك أدعى لحقي من أن استرعيك وأرأف بمخلفي من أن أوصيك، ولكني أقول لك فيما يتعلق بدولتك! سالم الروم ما سالموك، واقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة ولا تيق ... الخ<sup>(83)</sup>.

فهذا يدلنا على المكانة الكبيرة التي حظي بها ابن كلس، وبعد وفاة ابن كلس أغلقت الدواوين مدة ثمانية عشر يوماً حزناً عليه. إن الدواوين كانت في عهد المعز موجودة في القصر الذي شيده جوهر الصقلي<sup>(84)</sup> وكانت الدواوين قد نقلت في عهد الخليفة العزيز إلى قصر الوزير ابن كلس وبقيت حتى وفاته<sup>(85)</sup>، ونقل الديوان بعدها في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله إلى دار وزيره أبي الفتح مسعود بن طاهر، ثم رجعت إلى القصر، ثم نقلها أمير الجيوش بدر الدين الجمالي إلى داره بدار الملك، وبعد مقتله رفعت إلى القصر واستمر ذلك حتى سقوط الدولة<sup>(86)</sup>.

وقد ازداد تسلط أهل الذمة وخاصة عيسى بن نسطورس الذي تحيز للنصارى من أبناء ملته، كذلك انحاز منشأ إبراهيم القزاز لليهود في الشام، بل تماهى في ظلم المسلمين، حيث فرض عليهم ضرائب باهظة، وهذان عملا على تنصير الدواوين في مصر وتهويدها في بلاد الشام<sup>(87)</sup>.

وعندما عوتب ابن نسطورس على سوء معاملته للمسلمين قال ابن نسطورس: "إن شريعتنا متقدمة والدولة كانت لنا ثم صارت إليكم، فجرتم علينا بالجزية والذلة، فمتى كان منكم إلينا إحسان حتى تطالبونا بمثلته، إن ما منعناكم قتلتمونا وإن سالمناكم اهنتمونا، فإذا وجدنا لكم فرصة فما تتوقعون أن نصنع بكم"<sup>(88)</sup>. وهذا ينم عن مشاعر القبط إزاء المسلمين، وتؤكد روح التعصب السائدة بين بعض كبار الموظفين واليهود والنصارى في تلك الفترة، الأمر الذي دفع المسلمين إلى التذمر والاحتجاج.

فكان لزاماً على الخليفة العزيز أن يتدخل، حيث فرض رقابة على نسطورس ومنشأً وذلك بعزلهم ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم<sup>(89)</sup>.

ويذكر أن أهالي الفسطاط غضبوا كثيراً من تمادي النصارى واليهود في سياساتهم إزاء أهل السنة، حيث إنهم أعطوا لامرأة ورقة وطلبوا منها تسليمها للخليفة العزيز وهو في ركب، ذكر فيها (بالذي أعز اليهود بمنشأً والنصارى بابن نسطورس وأذل المسلمين بك إلا نظرت في أمري؟"<sup>(90)</sup>.

إلا أن الخليفة وتحت ضغط ابنته ست الملك عفا عن ابن نسطورس مقابل أن يرد الدواوين والأعمال إلى الكتاب والمتصرفين المسلمين<sup>(91)</sup>.

ويذكر أن ابن نسطورس قدم هدية لخزانة الدولة مبلغاً مقداره ثلاثمائة ألف دينار للصفح عنه<sup>(92)</sup>، أما منشأً فأخذ منه أموالاً كثيرة<sup>(93)</sup>.

هذا وقد لاقت سياسة الحاكم العدائية إزاء أهل الذمة ترحيباً من المسلمين، الذين عانوا من فرض الضرائب الثقيلة والابتزاز والمحاباة التي يمارسها موظفو أهل الذمة<sup>(94)</sup> كما أن الحاكم قبض على كتاب الدواوين من النصارى، ثم أطلق سراحهم بوساطة من طبيبه أبي الفتح سهل من مقشر النصراني لأن الأخير له حظوة عند الحاكم<sup>(95)</sup>.

وكان الخليفة كثيراً ما يحارب طائفة الملكانية الذين تمادوا في سياستهم منذ أيام الخليفة العزيز، كما أن الحرب بين الفواطم والروم كانت دافع آخر لاضطهاده للطائفة الملكانية<sup>(96)</sup>.

وهناك دافع آخر هو إبعاد الظن بمحاباته لهذه الطائفة بسبب قرابة أخته ست الملك ابنة المرأة المسيحية<sup>(97)</sup>، وكان الخليفة يهدف إلى استقطاب طائفة الأقباط على المذهب اليعقوبي<sup>(98)</sup>.

فسياسة الحاكم كانت قاسية على أهل الذمة وذلك محاولة منه لتطبيق العهد العمري عليهم<sup>(99)</sup>.

### الخاتمة:

وضحت الدراسة أن الدور الذي قام به أهل الذمة من توليهم للوظائف الكبرى في الدواوين والخراج والوزارة كان مهماً، حيث كان أهل الذمة يمثلون عنصراً مهماً من عناصر المجتمع، وكان الخلفاء الفاطميون يميلون إلى استخدامهم في كثير من وظائف الدولة، فلعب أهل الذمة دوراً مهماً في شؤون الحكم والإدارة، حيث استخدموا في الوظائف المختلفة في الدولة، فنجد أنهم يتولون الدواوين وعمال الخراج والوظائف المهمة.

والحقيقة أننا نلمس ازدياد استخدام الذميين من القبط واليهود كثيراً في العصر الفاطمي، بل وتوسعوا في استخدامهم في مختلف الوظائف، وحتى الخليفة الحاكم بأمر الله الذي اتصف بالقسوة الشديدة إزاء أهل الذمة، كان كثير من وزرائه وكتابه وعمال خراجه من القبط، ثم استوزر الذميين في عهد الخلفاء إلى جانب أعمال الصيرفة والجهاذة، ونلاحظ أن الموظفين كانوا يميلون إلى إخوانهم في الدين ويرعون مصالحهم.

وقد جرى اعتماد الخلفاء الفاطميين على كتاب أهل الذمة لأنهم ضمنوا ولاءهم أكثر من ولاء السنة.

وقد ازداد تسلط بعض من موظفي أهل الذمة وخاصة الأقباط على المسلمين، ويزداد ظلمهم عندما يفرضون ضرائب باهظة، فما كان من الخلفاء إلا التدخل لصالح المسلمين ومصادرة أموال وممتلكات هؤلاء الموظفين.

هوامش البحث:

- (1) سورة البقرة، آية 62.
- (2) قاسم، قاسم عبده، اليهود في مصر دار الشروق الأولى، 1993، القاهرة، ص16.
- (3) طقوش، محمد سهيل تاريخ الفاطميين في شمالي افريقية ومصر وبلاد الشام، ط2، دار النفائس للطباعة والنشر، والتوزيع، 2007، ص220.
- (4) كان جوهر قد اعتقل ألف غلام من الأخشيدية والكافورية، حيث قيدهم وحبسهم، ينظر: الانطاكي، يحيى بن سعيد ، تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيا حقه ووضع فهارسه عمر تدمري جروش برس طرابلس، لبنان، 1995، ص147-148، المقرزي، الخطط المقرزية، ج2، ص138.
- (\*) يعقوب بن كلس: ولد ببغداد ونشأ بها وتعلم الكتابة والحساب ثم سافر مع والده إلى بلاد الشام ومنها إلى مصر سنة 330 هـ، وهناك لمع نجمه وتألّق واتصل بخواص كافور الأخشيدي وما لبث أن قربه كافور لنجابته وحسن سياسته وأجلسه في ديوانه الخاص وبدأ مركز ابن كلس يسمو يوماً بعد يوم حتى صار له الأمر والنهي وأراد كافور أن يعهد إلى ابن كلس الوزارة إلا أن دينه اليهودي حال دون ذلك إلا أن ابن كلس اعتنق الإسلام وتولى الوزارة سنة 356هـ، ينظر: ابن تغري بردي المصدر السابق، ج4، ص160 ابن خلكان، أبي العباس أحمد، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، حقق أصوله وكتب هوامشه يوسف طويل وزميله، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2012، ج5، ص343.
- (\*) الجوالي هي ما يؤخذ من أهل الذمة من جزية على رؤوسهم في كل سنة سواء في العواصم أو خارجها، ينظر: القلقشندي، أبي العباس أحمد، صبح الأعشى في صناعة الأثناء، المطبعة الأميرية ، القاهرة، 1914، ج3، ص462، 463.
- (\*) الأحباس: ما يوقف على جهة من جهات الخير وما تحصل من أموالها يصرف فيما أراد الواقف، ينظر: حسن إبراهيم الفاطميون في مصر المطبعة الأميرية ، القاهرة، 1932، ص183.
- (5) المقرزي، ابن العباس، اتعاض الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تر: محمد عطا ، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت، ج1، ص144، 145 ، القلقشندي، المصدر السابق، ج3، ص362، 363.
- (6) طقوش، المرجع السابق، ص220.

- (7) حسين محمد كامل ، في أدب مصر الفاطمية، دار الفكر العربي ، ص174.
- (8) المقرئزي، الخطط المقرئزية، ج1، ص444.
- (9) ابن خلدون، عبدالرحمن كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، اعتنى به عادل بن سعد، ط، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010، ج4، ص55؛ القلقشندي، المصدر السابق، ج3، ص357.
- (10) المقرئزي ، الخطط المقرئزية، ج1، ص397، ابن تغري بردي ، المصدر السابق، ج4، ص160، ابن العماد عبدالحى شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار الأفاق الجديدة ، بيروت، ج3، ص97.
- (11) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج4، ص160.
- (12) ابن خلكان ، المصدر السابق، ج5، ص394.
- (13) المقرئزي، المصدر السابق، ج1، ص444.
- (14) المقرئزي، المصدر والجزء والصفحة نفسها.
- (15) حسين محمد كامل، في أدب مصر الفاطمية، دار الفكر العربي، ص174.
- (16) المقرئزي ، الخطط المقرئزية، ج1، ص444.
- (17) ينظر ابن خلكان، المصدر السابق، ج2، ص333، الانتطاي، المصدر السابق، ص219..
- (18) المصدر السابق، ج4، ص175.
- (19) سيد، أيمن ، فؤاد الفاطمية في مصر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2007، ص153.
- (20) دعكور، عرب حسين، تاريخ الفاطميين والزنكيين والايوبيين والمماليك وحضاراتهم منتدى سور الازبكية، بيروت، ص2010، ص53.
- (21) ترتون، أس، أهل الذمة في الإسلام، تر: حسن حبشي، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994، ص22.
- (22) المقرئزي، اتعاظ الحنفاء، ج1، ص144.
- (23) المقرئزي، الخطط المقرئزية، ج1، ص402، سليمان، سمير عبدالله، الدواوين في مصر خلال العصر الفاطمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2006، ص24.
- (24) الحياة الاجتماعية في العصر الفاطمي، دار الثقافة العلمية، 1999، ص88.
- (25) المقرئزي، الخطط المقرئزية، ج1، ص397.
- (26) المقرئزي، الخطط المقرئزية، ج1، ص440، حسين محمد كامل، المرجع السابق، ص174.



- (27) المقرئزي، الخطط المقرئزية، ج2، ص287.
- (28) المقرئزي، المصدر السابق، ج1، ص313، 320، العبادي أحمد مختار في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة ، بيروت، ص281.
- (29) ينظر الخطط المقرئزية، ج2، ص6، الانطاكي، يحيى بن سعيد، المصدر السابق، ص228.
- (\*) الوساطة: درجة من درجات الوزارة فهي مرتبة وسطى بين وزارة التنفيذ ووزارة التفويض، ينظر: البيلي: محمد بركات، صفحات من تاريخ الدولة الفاطمية، 2007، ص117.
- (30) الانطاكي، المصدر السابق، ص228.
- (31) ابن خلدون، عبدالرحمن، المصدر السابق، ج4، ص55.
- (32) المقرئزي، المصدر السابق، ص322، العبادي أحمد مختار، المرجع السابق، ص281.
- (33) طثوش محمد سهيل، المرجع السابق، ص220.
- (34) المصدر السابق، ص203، أحمد، ناريمان عبدالكريم، المرأة في مصر في العصر الفاطمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1993، ص97.
- (35) الانطاكي، المصدر السابق، ص238.
- (36) سليمان، سمير عبدالله، المرجع السابق، ص32.
- (\*) ابن عمار هو أبو محمد الحسن بن عمار بن علي بن أبي الحسن الكلبي أحد امراء صقلية وأحد شيوخ كتامة، المقرئزي، الخطط المقرئزية، ج2، ص36.
- (37) المقرئزي، الخطط المقرئزية، ج2، ص36.
- (38) المقرئزي، الخطط المقرئزية، ج2، ص4، حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص202-203، دخيل، محمد حسن الدولة الفاطمية، ط1، مؤسسة الانتشار العربي بيروت، لبنان، 2009، ص30.
- (39) المقرئزي، الخطط المقرئزية، ج2، ص4.
- (40) المصدر نفسه، ج2، ص4، 5.
- (41) الانطاكي، المصدر السابق، ص169، 194.
- (42) المقرئزي، اتعاظالحنفاء، ج2، ص81، 371.
- (43) المصدر نفسه، ص277.
- (44) قاسم عبده قاسم، أهل الذمة في مصر، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، ص238، 252.
- (45) قاسم، عبده قاسم، المرجع السابق، ص49.

- (46) سلطان، عبدالمنعم، المرجع السابق، ص48.
- (47) سلطان، عبدالمنعم، المرجع نفسه، ص98.
- (48) أحمد، ناريمان عبدالكريم ، معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996، ص126.
- (49)المقريزي: الخطط المقرزية، ج2، ص387.
- (50)المقريزي المصدر السابق، ج1، ص377.
- (51) الانطاكي ، المصدر السابق، ص202.
- (52) اتعاط الحنفاء، ج2، ص93.
- (53) البيلي محمد بركات، المرجع السابق، ص199.
- (54) المناوي، محمد حمدي الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، 1970، ص50.
- (55) المقريزي، المصدر السابق، ج1، ص354، 369.
- (56) المقريزي، اتعاط الحنفاء، ج2، ص73.
- (57) المقريزي، المصدر السابق،، ج1، ص340.
- (58) المصدر السابق، ص295.
- (59) المصدر السابق، ص302.
- (60) الانطاكي، المصدر السابق، ص235، 236.
- (61) ويذكر المقريزي ابي سعيد سهل ابن هارون وأخيه ابي ثمر ابراهيم، المصدر السابق، ج2، ص48، 49، سيد ، أيمن فؤاد، المرجع السابق، ص198.
- (62) المقريزي، المصدر السابق، ج2، ص49، ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج5، ص22، ابن ميسر، تاج الدين محمد، المتقي من أخبار مصر، انتقاء تقي المقريزي، حققه وكتب مقدمته وحواشيه ووضع فهرسه أيمن سيد ، المعهد العلمي الفرنسي، للأثار الشرقية بالقاهرة، ص3، 25..
- (63) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج5، ص22.
- (64)المقريزي، المصدر السابق، ج2، ص51.
- (65) سيد، أيمن فؤاد، المرجع السابق، ص199.
- (66) ابن ميسر، المصدر السابق، ص5، 9.
- (67) قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص84.

- (68) المقرئزي، الخطط المقرئزية، ج2، ص160، عبدالله، سليمان سمير، المرجع السابق، ص151، وتذكر ناريمان عبدالكريم أن وظيفة مستوفي الدواوين من الوظائف العليا في الدولة، ينظر المرجع السابق، ص117.
- (69) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج5، ص129 ابن ميسر ، المصدر السابق، ص18.
- (70) عامر، فاطمة مصطفى، المرجع السابق، ص200.
- (71) المقرئزي، المصدر السابق، ج1، ص354، 356، 369.
- (72) ابن ميسر، المصدر السابق، ص31، 56.
- (73) الانطاكي، المصدر السابق، ص139.
- (74) دكور، عرب حسين، المرجع السابق، ص93.
- (75) ايمن السيد، المرجع السابق، ص167.
- (76) عامر، فاطمة مصطفى، ج2، ص200.
- (77) المقرئزي، المصدر السابق، ج1، ص323.
- (78) المقرئزي، المصدر الصفحة نفسها.
- (79) المقرئزي، المصدر السابق، ج1، ص323، القفطي ، جمال الدين ، المصدر السابق، ص187، أحمد حسن خضيرى، علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب، ط1، مكتبة مديولي، 1996، ص226.
- (80) البيلى محمد، المرجع السابق، ص115.
- (81) المقرئزي، المصدر السابق، ج1، ص299.
- (82) الانطاكي، المصدر السابق، ص202.
- (83) ابن خلكان، احمد المصدر السابق، ج5، ص398، ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج4، ص161.
- (84) سليمان، سمير عبدالله، المرجع السابق، ص36.
- (85) رمضان، هويدا عبدالعظيم ، المجتمع في مصر الإسلامية، الهيئة المصرية للكتاب، 1994، ج1، ص112، 113.
- (86) سليمان، سمير عبدالله، المرجع السابق، ص23.
- (87) حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص200.
- (88) المقرئزي، المصدر السابق، ج1، ص302، سلطان عبدالمنعم، المرجع السابق، ص88.

- (89) سليمان سمير عبدالله ، المرجع السابق، ص42.
- (90) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج4، ص119، 120.
- (91) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج4، ص120، المقرئزي، المصدر السابق، ج1، ص322.
- (92) المقرئزي، المصدر السابق، ج1، ص322، ترتون، أ.س، المرجع السابق، ص23.
- (93) ترتون، أ.س، المرجع السابق، ص23.
- (94) سيد، أيمن فؤاد، المرجع السابق، ص167.
- (95) الانطاكي، المصدر السابق، ص252.
- (96) طقوش، محمد سهيل، المرجع السابق، ص272.
- (97) أحمد، ناريمان عبدالكريم، معاملة غير المسلمين في دولة الإسلامية الهيئة المصرية للكتاب، 1996، ص97.
- (98) طقوش، محمد سهيل، المرجع السابق، ص272.
- (99) سيد، أيمن فؤاد، المرجع السابق، ص169، طقوش، المرجع السابق، ص272.